

الْبَابُ الْخَامِسُ عَشْرُونَ

تولية الإسكيا إسحق

فلما بلغهم خبر وفاته بادروا بالرجوع إلى كاغ قبل مجيء بلمع ، واتفقوا على أخيه إسكيا فولّوه السلطنة في شهر شعبان سادس عشر منه بالتاريخ المذكور وأقام اسماعيل ، فيها سنتين ، وتسعة اشهر وستة . يوم ولايته سبعة وعشرون سنة .

أما إسحق فكان أجلّ مَنْ دخل في تلك السلطنة وأعظمهم خوفاً وهيبة وقتل من الناس أهل الجند خلقاً كثيراً .

وكان من سيرته إذا خال من أحد شيئاً من التعرّض للسلطنة لا بُدَّ أن يقتله أو يُخرجه من أرضه ، هذا دأبه وعاداته فبدخوله السلطنة أرسل زغرانياً واحداً إلى بير ليقتل كرمين فاري عثمان وجعل له جُعللاً ثلاثين بقرة . التي ما ولدة واحدة منهن قط فقتله . ورجع فأعطاه الجُعلل كاملاً .

ولما خرج إلى وطنه أمر بقتله فقتل ، ثم قتل كرمين فاري هماد ولد أرى وجعل على كسر خلفه ، ثم سأل عن سوم كتبك أحيى أم لا ؟ فأخبر أنه حي فأمر بإطلاقه ومجيئه إليه . فلما امتثل بين يديه قال له : مثلك الذي يعرف الخير ويشكره ، هو الذي يستحق أن يُقَرَّب ويُتخذَ عَصِداً ورفيقاً ، أريد أن أردك في مقامك عزيزاً مُكْرَماً ، فقال له : طلبه مني السلطان الرشيد المبارك فأجابه فأحرى أنت الذي ليس بشيء . فقتله .

ثم إنه حصل في قلبه خوفٌ عظيمٌ من هيكي بكر على دود ، فذكر لهبر كي أنه يأمره بالذهاب معه ، فيقبضه ويجعله في الحديد ، وحين عزم على المسير قال إسكيا إسحق في ناديته : يا هيكي أنت مع هنبركي فسكت ولم يُجبه . ثم قال : يا هيكي أنت مع هنبركي فسكت .

ثم قال : يا بكر على أنت مع هنبركي فأسرع بالوقوف سمعاً وطوعاً الآن ، علمت أن بكر على هو الذي يذهب مع هنبركي ، وأما هيكي فلا يذهب مع هنبركي ، فتعجّب الناس من جودة فهمه ومعرفته بالجواب .

فجعل موسى خلفه ، ثم إنه صَلَّى عيد الأضحى في كبر في آخر الثامنة والأربعين ،
وفي التاسعة والأربعين غزا إلى كعب ، آخر بلاد سلاطين بندق .

(إصلاحات إسكيا إسحق)

(الجامع جنى)

فلما رجع طرق جنى وصَلَّى فيها الجمعة ، فلما أراد أن يدخل الجامع رأى مزبلة
عظيمة جدا قرب الجامع من جهة القبلة . قال : ألقوه برا . وما صَلَّى الناس الجمعة
حتى ردمها خدامه كأنها لم تكن هنالك قط ، لأن حكمه شديد .

فلما فرغوا من صلاة الجمعة تكلم القاضي العباس كب في بعض المسائل ومحمود
بُغيغ جالسٌ حذاء القاضي ، وهو من أكبر شهوده ، فبادر هو بالجواب ، فلما وصل
كاغ عن قريب جاءه مرسولٌ أهل جنى ينعى القاضي العباس رحمه الله تعالى
يستأذنون في تولية القاضي ، فقال : أليس هنالك قاضٍ ؟ قالوا : ما نعرفه . قال :
يعرف هو نفسه المودب الأكحل الغليظ القصير الذى جاوبنى ساعة أتكلم مع
الهالك ، علم هو أنه قاضٍ . ولذلك اجترأ على مجاوبتى ، وهل يقدر أحدٌ على ذلك
من الفقهاء غير القاضي ، اذهبوا فهو قاضيكُم من قبل .

وبالغ فرن على كثر في التعواج له عند رجوعه من غزوة تعب ، حتى بقى يريد
منه الفره ليقته فقطن له إسكيا إسحق ، وجعل يأخذ الحذر منه حتى بلغ مرسى
كبر ، فطلع تنبكت للسلام على القاضي الفقيه محمود ، فسَلَّم عليه ورجع .

فلما بلغ المرسى بادر بالدخول في القارب ، فلما رآه تعجَّل في الدُّنو إليه فأمر
القدافين أن يدفعوا إلى وسط البحر فجاء بالغم حتى دخل البحر إلى ركبته فلم
يعرف ، فلما أيس منه قال : هكذا كان الأمر فولى بالغيط الشديد ، ولما بلغ إسكيا
مدينة كاغ أرسل لأهل تندرُم أن يطردوه ، فخرج وحده هارباً إلى أرض الوادى ،
فقبضه رجلٌ وباعه .

فقُيِّد في الحديد يسقى الجنان إلى يوم واحد رآه واحدٌ من العرب الذى يأتية في بيع
الخليل أيام تمرده وطغيانه فحدد النظر منه . فقال : كأنك فرن على كثر فرمى نفسه في
البئر ، وكان فيه حتفه وهو في أيام تجبُّره يتعدَّى على الأحرار ببيعهم ، فبلغ شكواه

القاضي محمود فزاره يوماً واحداً ، فقال : لم تتبع الأحرار ؟ ألا تخاف أن يبيعوك ؟
كاد يتميز من الغيظ من قول أبي البركات فتعجب به وأنكره ، وقال : كيف أباع ؟

ولذلك صدق الله قول هذا السيد فيه ، فجعل أخاه داوود كرم من فاري ، ومكث فيها ثماني سنين ، وفي إحدى والخمسين ذهب إلى كركاب اسم مكان في أرض دند ، وفي الثاني والخمسين أرسل أخاه كرم من فاري داوود إلى ملي ، فهرب منه سلطان ملي ونزل بعسكره في بلده وتأخر فيه سبعة أيام ، وبرح في العسكر أن كل من يريد أن يطير الماء فليفعله في دار السلطنة ، وفي سابع اليوم امتلأت الدار كلها بالغايط مع سمنها وعظمتها ، ثم ارتحل راجعاً إلى سغى .

فلما رجع أهل ملي إلى البلد تعجبوا مما وجدوه في دار السلطان ، وتعجبوا من كثرة أهل سغى ومن رذيلتهم وسفاهتهم .

وفي الخامس والخمسين توفى شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر ليلة الجمعة السادسة عشر من رمضان ، كما مرَّ رحمه الله تعالى ونفعنا به في الدارين .

وفي يوم الجمعة الخامس عشر من شوال تولى القضاء ابنه الفقيه القاضي محمد ، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة ، ومكث في القضاء سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ومات في الثالثة والسبعين في صفر طلوع الشمس يوم الأحد الثالث عشر منه عن ثلاث وستين سنة رحمه الله تعالى .

وفي أوائل السادس والخمسين هبَّ إلى كوكيا ، فمرض فيها مرض الموت ، ولما اشتد عليه بعث لكرم من فاري أحباؤه سرّاً في المجيء فأهّمه شأن اربند فرم بكر ولد كبير بنت إسكيا الحاج محمد ، لأنه شهر وبهر في الذكر الجميل ، حتى لا يختار أهل سغى أحداً عنه في ولاية السلطنة .

فاشكى به عند رجل عالم بالاستعمال فاستعمل له عليه وأمره أن يحضر خائباً الذي فيه ماء ، فأحضره وعزم فيه بالعزائم وناداه باسمه ، فأجاب وقال له : اخرج إلى . فخرج شخص من الماء بقدرة الله تعالى على شكله وصفته ، فجعل الحديد في رجليه وطعنه بالحربة . وقال له : اذهب فغمص في الماء .

ثم توجه إلى كاغ ، ما وصل إلا وتوفى اربند فرم المذكور ، فجاز إلى كوكيا فوصل

قبل وفاة إسكيا إسحق ، فخاصمه هيكي موسى أشد الخصومة ، وقال له : من أمرك بهذا ؟ ومن شاورت عليه ارجع الساعة فرجع ، وعن قريب تُوفى فبعث له في الرجوع فرجع .

ولما أيس من الحياة اختار أربعين فارساً شجاعاً ، وأمرهم أن يوصلوا ابنه عبد الملك أبي كاغ عند الخطيب لدخول الحرمه لما عرف من الإساءة التي فعل لأهل سغى ، ولما عاملهم به عبد الملك المذكور من التوقيع والإذلال من تجبره وطمغانه ، فوصلوه كما أراد ، وفيهم عثمان درفن بن أبي بكر كرن كمرن بن الأمير إسكيا الحاج محمد .

وقد بعث إليه في أيام قوته مولاي أحمد الكبير سلطان مراکش أن يُسلم له في معدن تغاز^(١) فبعث له في الجواب أن أحمد الذي سمع ليس هو إياه ، وأن إسحق الذي سمع ليس أنا إياه ، ما زال ما حملت به أمه ثم أرسل ألفين ركاباً من التوارق وأمرهم أن يُغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراکش بلا إخراج روح أحد ، فيرجعون على إثرهم .

فغاروا على سوق بني أصبح كيفما قام وثبت ، فأكلوا جميع ما وجدوه في ذلك السوق من الأموال ، فرحبوا كما أمرهم وما قتلوا أحداً ، وما ذلك إلا ليرى السلطان أحمد المذكور قوته ، وحسب ما أخذه ظلماً وغياً من تجار تنبكت من الأموال بعد موته ، فكان سبعين ألفاً ذهباً على يد خديمه محمود بزا أخ الأمين يزا ، وهما قينان أصلاً يتعاقب من بين تنبكت وكاغ ذهباً ورجوعاً ، يقبض من كل واحد بقدر مقدرة مما تكلم به أحد في حياته خوفاً من سطوته .

وتُوفى يوم السبت ، والله أعلم ، الرابع والعشرين من صفر سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وبين موته وموت أبي البركات الفقيه محمود خمسة أشهر وعشرة أيام ، ومكث في السلطنة تسع سنين وستة أشهر .



(١) تغاز : بلد في وسط الصحراء الكبرى ، تقع بين بلاد المغرب وبلاد السودان . اشتهرت بأنها مصدر أساسي للملح ، وهو أهم السلع في غرب إفريقيا . واشتهرت بأن مبانيها مبنية من حجارة الملح . انظر أماطير : التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر ، والسادس عشر ، دار الرواد ، ليبيا ، ١٩٩٦م . ص ١٢٤ .